المبحث الثاني

أهمية السياق والتناسق القرآني

بما إنّ النص القرآني يختلف عن بقية النصوص، لما له من سمات معينة يمتاز بها تسوغ خصوصيته، كونه: «كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته». لذلك لم يقتصر الغاية والتعامل مع سياق ونسق النص القرآني على النحاة فقط بل تعداه إلى البلاغيين وتناولوه فِي كتب الإعجاز، وبديع القرآن، وتناوله الفقهاء والأصوليون فِي كتب الأصول والأحكام، والمفسرون فِي كتب التفسير بأنواعه، فقد كانوا أكثر وعياً واهتماماً بالسياق والنسق القرآني، لأهميته فِي تحليل النص وبيانه.

وكان المفسرون من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق القرآني[1]. ويعد أصل من أصول علم التفسير، لا غنى للمفسّر عنه، لما له أثر ظاهر فِي تحليل النص[2]؛ لأنّه وسيلة مهمة من وسائل فهم كلام الله تعالى، وبيان المعنى الصحيح المراد للشارع الحكيم[3].

ونجد اهتمام المفسرين بالسياق والنسق القرآني من خلال تعريفهم لعلم التفسير، فعرفه أبو حيان، وَقَالَ: «التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك»[4].

---

(١) دلالة السياق: ١٠٣.

(٢) أرشيف ملتقى أهل التفسير: ٧٣٠٤؛ دلالة السياق وأثرها فِي التفسير: ٧٥.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ١٠٣؛ وينظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث: ٧٣٠٤.

(٤) البحر المحيط فِي التفسير: ٢٦.

فذكر أبو حيان فِي تعريفه مدلولاتها التركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وَهَذَا ما يعتني به السياق والنسق فِي الآية أو النص القرآني، وزاد «وتتمات ذَلِكَ» قصد به الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وقصة توضح بعض ما أُبْهِم فِي القرآن ونحو ذلك[1].

وعرّفه الزركشي: «عِلم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول الناسخ والمنسوخ»[2].

وذكر مساعد الطيار تعريفاً للتفسير ذكره الكافي (ت ٨٧٩هـ): «هو كشف معاني القرآن، وبيان المراد، والمراد من معاني القرآن أعم، سواءٌ أكانت معاني لغوية أم شرعية، وسواء كانت بالوضع أو بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال...»[3].

وهذا التعريف أقرب لموضوعنا لاهتمامه بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال، أي: يدل على السياق والنسق القرآني فيه.

وللعلماء أقوال على إنّ السياق أصل معتبر في التفسير وأساساً في فهم الكلام عندهم، وتواترت أقوالهم في تأكيد ذلك وتقريره:

قال مسلم بن يسار عن أبيه: «إذا حدّثت عن الله حديثاً فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده»[4].

---

(١) ينظر: البحر المحيط فِي التفسير: ٢٦.

(٢) البرهان فِي علوم القرآن: ١٣/١.

(٣) مفهوم التفسير: ٦٨؛ التيسير في قواعد التفسير: ١٢٤-١٢٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٣/١.

وقال عز الدين بن عبد السلام: «السياق مرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال، فكلّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً، وكلّ صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمّاً»، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه[١].

وقال ابن تيمية: «فمن تدبّر القرآن وتدبّر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبيّن له المراد»[٢].

وقال الشاطبي: «فلا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره»[٣].

وقال: «ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض»[٤].

وقال الزركشي: «دلالة السياق أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئاً أنكره، وقال بعضهم: إنّها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى»[٥].

وقال محمد رشيد رضا: «وإنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظة موافقته لمّا سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته»[٦].

---

(١) الإمام في بيان أدلة الأحكام: ١/١٥٩، ١٦٠؛ بدائع الفوائد: ٤/٨١٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/٩٤.

(٣) الموافقات: ٤/٢٦٥ .

(٤) الموافقات: ٤/٢٦٦.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه: ٨/٥٤.

(٦) تفسير المنار: ١/٢٠.

ومما تقدّم تظهر أهمية السياق في أمور، منها في سياق النص ومنها في سياق الموقف:

١- إنّ تفسير النصوص بعضها بعضاً فهي تعتمد استقراء النصوص (سياق القرآن) منها تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنّة[١].

٢- تفسير النصوص بالقرائن والأحوال، ويبدو ذلك في أقوال الصحابة في التفسير؛ لأنّهم شاهدوا التتريل وعرفوا القرائن والأحوال، وهذا في سياق الموقف[٢].

٣- ومن معرفة القرائن والأحوال يعين على معرفة أسباب التزول لأهميتها عند المفسرين باعتبارها معيناً على فهم المراد من الآية، وقال ابن تيمية في «ومعرفة أسباب التزول يعين على فهم الآية، فإنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[٣].

وذكر الزركشي فوائد في معرفة أسباب التزول منها[٤]:

أ . معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب. تخصيص الحكم عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب.

ج. الوقوف على المعنى.

مثال ذلك ما أورده السيوطي حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ

---

(١) ينظر: دلالة السياق: ١٠٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٦، ١٠٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٣٩/١٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢٢/١.

خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، حيث قال: «فإنّ ظاهر لفظها لا يقتضي أنّ السعي فرض، وقد ذهب بعضهم إلى عدم فرضيته تمسّكاً بذلك، وقد ردّت عائشة رضي الله عنها هذا الفهم بسبب نزولها، وهو أنّ الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنّه من عمل الجاهلية»[١].

١- وبعد الزمان والمكان من العناصر السياقية التي اهتم بها المفسرون، فإنّ الفرق في المكي والمدني فرق خطابي أساساً يعتمد على الموضوعية التي تعتمد بدورها على الأحوال المكانية والزمانية في المسموع مكان أو زمان نزوله، وهذه إشارة واضحة عميقة لسياقي النص والموقف عند المفسرين، للبحث عن دلالات النصوص والاستنباط منها[٢].

٢- إنّ السياق القرآني مهم عند المفسرين في حلّ الخلاف والإشكال والتشابه اللفظي في الآيات، والسياق من أعظم القرآن في الترجيح، لأنّ المفسرين تناولوا القرآن من الناحية اللغوية والدلالية في تحليل النص (الآية – السورة) من الناحية اللغوية (صوتية وصرفية ونحوية)، ومن الناحية الدلالية (لفظية وتركيبية وأسلوبية) (معاني وبيان)[٣].

قال ابن القيم: السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة.

قال تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] تجد

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/١٠٩.

(٢) ينظر: دلالة السياق: ١١٣، ١١٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١١٠؛ وأرشيف ملتقى أهل الحديث: ٧٣٠٤.

سياقه يدل على إنّه الذليل الحقير[1].

وَقَالَ ابن جزي فِي وجوه الترجيح: «أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل عليه ما قبله أو ما بعده»[2].

١- والسياق والنسق هو الدال على المناسبات والكاشف لأسرار التعبير، وإنّ الربط بين الصدور والفواصل في الآيات، وعلاقة أولها بآخرها، وعلاقتها بين الآيات وبين السور هو دراسة نصيّة السياق فيها، ويظهر ذلك بوضوح فيما سمي (علم المناسبات)، ثم اختصت لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، وتفسير (تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور) لجلال الدين السيوطي[3].

٢- وتأتي أهمية السياق والنسق القرآني في فهم المعنى، وذلك أنّ الكلمة تكتسب مدلولها من السياق، وأنّ النظم يتوخى معاني النصوص وأحكامه ووجوهه فيما بين معاني الكلم، ولا يُتصوّر أن تفتقر المعاني المدلول عليها بالجمل المؤلفة إلى دليل يدل عليها زائد على اللفظ، لأنّه لا يمكن فهم أية كلمة بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها[4].

(١) ينظر: بدائع الفوائد: ٤/٩، ١٠.

(٢) تفسير ابن جزي: ١/١٩.

(٣) ينظر: دلالة السياق: ١٢٠؛ ودلالة السياق القرآني: ٢٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٨٢، ٣٨٥؛ ينظر: في النص الأدبي: ٦٧؛ ينظر: اللغة والمعنى والسياق: ٨٣؛ ينظر: دلالة السياق القرآني: ٢١.